'ضباط فرنسا' و بداية النفوذ(ج 3)

03-7-2002

لما كان الرئيس بومدين يشك في ولاء ضباط "الولايات" –خاصة الولايتين الرابعة و الثالثة- التي عرفت بتمردها على جيش الحدود و معارضتها لهيمنته على الحكم، فقد عمل على ضم "ضباط فرنسا" و جعلهم من المقربين حتى يدعم ركائز حكمه...حكم بومدين كان قاسيا على جميع معارضيه و لم يستثن من حملة القمع الشيخ البشير الإبراهيمي أحد أعمدة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الشهيرة حيث فرض عليه الإقامة القسرية لمجرد انه أصدر بيان استنكار لإعدام الشهيد سيد قطب من قبل نظام عبد الناصر. و رغم الخطاب الشعبوي و الحماسي الذي كان يوصف به الرئيس بومدين ضد فرنسا إلا أن النفوذ الثقافي و الاقتصادي للقوة الاستعمارية السابقة نادرا ما تأثر بالتوجه المعلن.

بقلم محمد اسماعيل

صعود العقيد بومدين –و اسمه الحقيقي بوخروبة- المفاجئ إلى واجهة مؤسسة الجيش الجزائري القوية لم يكن ليسمح له و هو "الشخصية المغمورة" المجهولة من غالبية الجزائريين من أن يصبح أول رئيس للجمهورية الجزائرية المستقلة، و كان أول من يدرك ذلك. و اختار العقيد بناء على ذلك أسلوبا ملتويا للإبقاء على نفوذه لكن وراء الستار، ففكر في استدراج أحد قادة "الثورة" التاريخيين، و بعد محاولات عديدة فاشلة قام بها مبعوثه و صديقه الشاب عبد العزيز بوتفليقة –الرئيس الجزائري الحالي- استطاع أن يقنع أحمد بن بلة الذي قضى معظم سنوات الحرب في السجن في فرنسا رفقة أربعة قادة آخرين بعد أن أجبر سلاح الجو الفرنسي الطائرة المغربية التي كانت تقلهم من المغرب إلى تونس على الهبوط و اعتقالهم ليصبحوا ورقة ضغط في أيدي النظام الفرنسي.

أحمد بن بلة كما عرف عنه كان، و لا يزال، قومي يساري الفكر و الموقف، شعبوي الأسلوب، ما فتئ و أن أثار ريبة بومدين الذي احتفظ لنفسه بوزارة الدفاع خاصة عندما عزم على الهيمنة الدستورية عن طريق الاستحواذ على الصلاحيات الرئاسية على حسابه . و شعر حينها العقيد بأن عليه أن يتحرك بسرعة فبرر عزم بن بلة على ازاحة صديقه عبد العزيز بوتفليقة من منصب وزير الخارجية و استبقه بعزله يوم عطلة نهاية الأسبوع الذي وافق تاريخ 19 يونيو 1965 و كان ثاني انقلاب يقوم به بومدين بعد الانقلاب المؤسساتي على الحكومة المؤقتة.

و لم تكن حماسة سنوات الاستقلال الأولى لتقضي على الخلافات المكبوتة الموروثة من فترة حرب التحرير، حيث احتفظ ضباط جيش التحرير الذين جاهدوا القوات الفرنسية في ساحات المعركة داخل الجزائر بشيء من الغيظ في صدورهم، خاصة أنهم شاهدوا بأعينهم ثمرة الاستقلال تتهاوى شيئا فشيئا مع الولاءات المشبوهة و التحالفات التآمرية التي ربطها قادة جيش الحدود سابقا بمن كانوا يعرفون ب"ضباط فرنسا"، أي الضباط الجزائريين الذي التحقوا بجيش التحرير خلال سنوات الحرب الأخيرة بل أن بعضهم انضم إلى الصفوف عشية ابرام اتفاق إيفيان و وقف إطلاق النار.

و لما كان الرئيس بومدين يشك في ولاء ضباط "الولايات" –خاصة الولايتين الرابعة و الثالثة- التي عرفت بتمردها على جيش الحدود و معارضتها لهيمنته على الحكم، فقد عمل على ضم "ضباط فرنسا" و جعلهم من المقربين حتى يدعم ركائز حكمه و حتى لا يكون نفسه ضحية انقلاب مضاد. و يروي أحد ضباط جيش التحرير في الداخل أن العقيد بومدين منح امتيازات و أموالا لبعض ضباط الداخل مقابل التفرغ للتجارة و الابتعاد عن السياسة!

حكم بومدين كان قاسيا على جميع معارضيه و لم يستثن من حملة القمع الشيخ البشير الإبراهيمي أحد أعمدة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الشهيرة حيث فرض عليه الإقامة القسرية لمجرد انه أصدر بيان استنكار لإعدام الشهيد سيد قطب من قبل نظام عبد الناصر. و توالت محاولات قلب حكم العقيد خلال سنوات نهاية الستينيات و كان أبرزها محاولة طاهر زبيري الفاشلة في شهر ديسمبر 1967 و التي خلفت حوالي ألف قتيل من بينهم مدنيين إثر تدخل سلاح الجو و قمع الإنقلابيين. و كان برر زبيري –قائد أركان الجيش آنذاك- محاولة الانقلاب بتهميش نظام بومدين لضباط جيش التحرير و فسح المجال ل"ضباط فرنسا". بل أن هناك من اتهم هؤلاء بتصفية عدد من ضباط حرب التحرير من بينهم العقيد سعيد عبيد في البليدة عام 1967 و العقيد عباس و محمد خيضر في مدريد –و هو من زعماء جبهة التحرير التاريخيين- خلال نفس العام.

و رغم الخطاب الشعبوي و الحماسي الذي كان يوصف به الرئيس بومدين ضد فرنسا إلا أن النفوذ الثقافي و الاقتصادي للقوة الاستعمارية السابقة نادرا ما تأثر بالتوجه المعلن. ذلك أن مقتضيات الصراع العربي الإسرائيلي و موقف فرنسا منه و كذا التوجه الاشتراكي-القومي لنظام بومدين كان يفرض خطابا معينا متبوعا بسياسات و قرارات لم تكن لتؤثر على النفوذ الفرنسي الفعلي في الجزائر. فسياسات "الثورة الزراعية" كانت تتناقض مع تشييد مصانع "جاهزة" من فرنسا –مثل مصنع تركيب الشاحنات من طراز

برليت الفرنسية- و انتهت في الأخير إلى الاستحواذ على أراضي الملاك الصغار ثم إهمالها بعد فشل السياسة الزراعية و نزوح سكان الريف باتجاه المدن للتغطية على بطالة مقنعة. و عليه كان يبدو آنذاك فتح سوق الاستهلاك الداخلي للصفقات التجارية مع الفرنسيين على مصراعيه "منطقيا"، فيما غابت مساعي يفترض أنها تعكس الخطاب الرسمي و تعمل على تقليص النفوذ الفرنسي الثقافي و الاقتصادي استراتيجيا و على المدى المتوسط على الأقل. كل ذلك لم يحصل و بات المجال مفتوحا لتغيير الخطاب نفسه غداة وفاة بومدين في شهر ديسمبر 1978.

تعيين الشاذلي بن جديد خلفا للرئيس الراحل لم يكن يتوقعه الكثيرون، و أنهى مرحلة تحكم الرئيس بمؤسسة الجيش و ليس العكس داخل بلد خرج عن القاعدة و أضحى للجيش فيه دولة! و قد حان الوقت بنسبة ل"ضباط فرنسا" الذي أصبحوا عقداء لأن يقطفوا ثمار مرحلة بومدين و شرعوا على مستويات و عبر أجهزة مختلفة تابعة للدولة بممارسة دفة الحكم في الخفاء مستغلين "طيبة" الرئيس الشاذلي الذي يجمع المهتمون أنه لم يكن من طراز الرئيس الحذر و المحتاط الذي يناور و يكيل المؤامرات لخصومه ف"يتغذى بهم قبل أن يتعشوا به"! يتبع بحول الله...